المقال السادس عشر

دقت ساعة العمل الشعبى *

هذه أسطر قليلة ، أندفع فيها للتعبير عن صدر يختنق وأحشاء تتلوى بآلام الخيبة والشلل والتردى مما وصلت إليه ما عرفت بمسيرة السلام لإيجاد حلول شاملة وعادلة للصراع العربى الإسرائيلى . أشعر بأن عمليات التفاوض مع الصهاينة قد أوشكت أن تصل إلى طريق مسدود ، إن لم تكن قد وصلت إلى ذلك فعلاً . وهل من دليل أو نذير أبلغ وأخطر من قرار الحكومة الإسرائيلية بالموافقة على الشروع فى بناء الحى الاستيطانى الجديد فى منطقة جبل أبو غنيم بالقدس العربية ،و فى غيرها من المواقع .

وقد صحب هذا القرار التحرك المباشر للبولدوزرات ، كما صحبه كذلك إنذار لرئيس السلطة الفلسطينية من نتنياهو رئيس وزراء

---

* مقال نشر فى أوائل ١٩٩٧ ، بمناسبة إعلان إسرائيل عن بناء مستعمرة جديدة فى جبل أبو غنيم فى القدس الشرقية .

إسرائيل بـأن أيـة مقاومة لإقامة هذا الحى سوف تواجه بإطلاق النار إن اقتضى الأمر ، بل أنها قـد تؤدى إلى وقف الانسحاب من الضفة ... وهل بعد هذا تحد و إرغام لقبول كل أمر واقع إسرائيلى؟ .

يحتدم الغضب وأتساءل : أين قرارات مجلس الأمن ؟وأين قرارات الجمعية العمومية للأمم المتحدة بإدانة تهويد القدس ، وعدم الاعتراف بما اتخذته وأعلنته بأن القدس بقسميها عاصمة إسرائيل الموحدة الأبدية ؟ وتتوارد الخواطر لأتساءل : أين تفسير اللورد كارادون صائغ القرار ٢٤٢؟ ثم أين خطاب شولتز وزير الخارجية الأمريكية للعاهل الأردنى الملك حسين فى يناير ١٩٨٣ ؟ وفى كل من هذين التقريرين تأكيد على أن مضمون الانسحاب من الأراضى المحتلة يمتد إلى الجبهات الثلاث فى سوريا ولبنان وفلسطين للأراضى المحتلة ، بما فيها القدس الشرقية .

وتجىء اتفاقيات أوسلو والقاهرة لتقرر أسس عملية السلام فى ضوء قرارات الشرعية الدولية ومحورها الأرض مقابل السلام ، وأن قضية المستعمرات وموضوع القدس مطروحان للتفاوض . وبين الخداع والمراوغة والكذب الإسرائيلى نصل إلى هذه اللحظة التاريخية الحاسمة والمنعطف الخطير فى عملية السلام . وهذه هى القدس العربية يتم تهويدها عمرانا وإنسانا ، ويتحقق الحلم الصهيونى . ويؤكد ـ دون تردد ـ نتنياهو أن القدس عاصمة إسرائيل الموحدة الأبدية . ومن ثم تجسد أفاعيله المتعددة فى واقع القدس القانون الأساسى الذى قرره الكنيست الإسرائيلى بتاريخ ٣٠ يوليو ١٩٨٠ ، معلنا أن [القدس الموحدة بكليتها

هى عاصمة إسرائيل] . وفى ٢٠ أغسطس من نفس العام يصدر مجلس الأمن قراره رقم (٤٧٨) يشجب بأقوى عبارة ادعاءات اسرائيل حول القدس، كما وردت فى القانون الأساسى .

ومنذ أوسلو يتردد مبدأ الأرض مقابل السلام ، لكن الواقع الإسرائيلى يتمسك تارة بالسلام مقابل السلام ،أو السلام مقابل الأمن . لا يعلم أحد على التحقيق ماذا تضمره الدولة المحتلة للأرض العربية من مضامين حقيقية لتلك الشعارات ، بيد أن كل يوم يمر يعزز اقتناعنا بطبيعة إسرائيل العدوانية التوسعية العنصرية ، وأنها لم تتخل عن أطماعها فى أرض اسرائيل الكبرى منذ أيام بن جوريون ، امتدادا حتى نتنياهو وأحلام الحرس الأقدم عزرا وايزمان وأبا إيبان وإسحق نافون ممن نشاهد صورهم على شاشة التلفزيون فى هذه الأيام .

قد انكشفت كل الأقنعة الإسرائيلية وخداع حلفائها . ولم تعد قرارات الإدانة أو الاستنكار الدولى مما تأبه له إسرائيل ، وقد غدت تصريحات الشجب وإظهار القلق أو عبارات التحذير كافية من قبل حكوماتنا من معوقات أو نكسات لمسيرة السلام ، بل وحتى تزعزعت مصداقية الاتفاقيات الجزئية المسكنة التى لا يتم تنفيذها مما يبشر بالوعد القومى . ولن تنطلى علينا دعاوى إزالة الحاجز النفسى ، أو بناء جسور الثقة ، أو خيرات الشرق أوسطية ، أو حوارات المثقفين الظاهرة و المستترة ، أو بتهمة أعداء السلام ، أو ضعف العقول كما يرى مؤرخنا الجليل .

نحن فى حاجة إلى بناء وتعزيز ثقافة المقاومة فى مواجهة قبول الأمر الواقع الذى يفرضه التهديد بالقوة الغاشمة ، تلك القوى الصهيونية داخل إسرائيل وخارجها ، ثقافة تعبىء الطاقات الشعبية وطلائعها من حركة المثقفين فى الوعى بمخاطر الاستسلام للأمر الواقع ، بزعم أنه لا خيار أمامنا على أساس قدراتنا المحدودة ، مع أنه لم تختبر إمكاناتها الحقيقة فى مقاومة كل الصور والأحداث والرموز الممثلة لمحاولات السيطرة والعدوان على حقوقنا المشروعة . إن نذر الكوارث غير مستبعدة نشير فحسب إلى حريق المسجد الأقصى عام ١٩٦٨ ، وإلى مذبحة الحرم الإبراهيمى ، وغير ذلك كثير من صور الطغيان والإذلال الإسرائيلى لنا ، ولما يمكن أن تزهق من أرواح أو تحطم من تراث .

لقد أصابنى الإرهاق ، ودعونى على الأقل أستمع إلى فيروز تصدح بصوتها العميق (يا قدس . . يا زهرة المدائن . . يا أرض السلام . .) ولعلكم جميعا تعيدون وتعيدون هذا النداء كل يوم وفى كل مكان فى هذا الأوان .